تُعنى بالشعر
والأدب العربي

القوافي

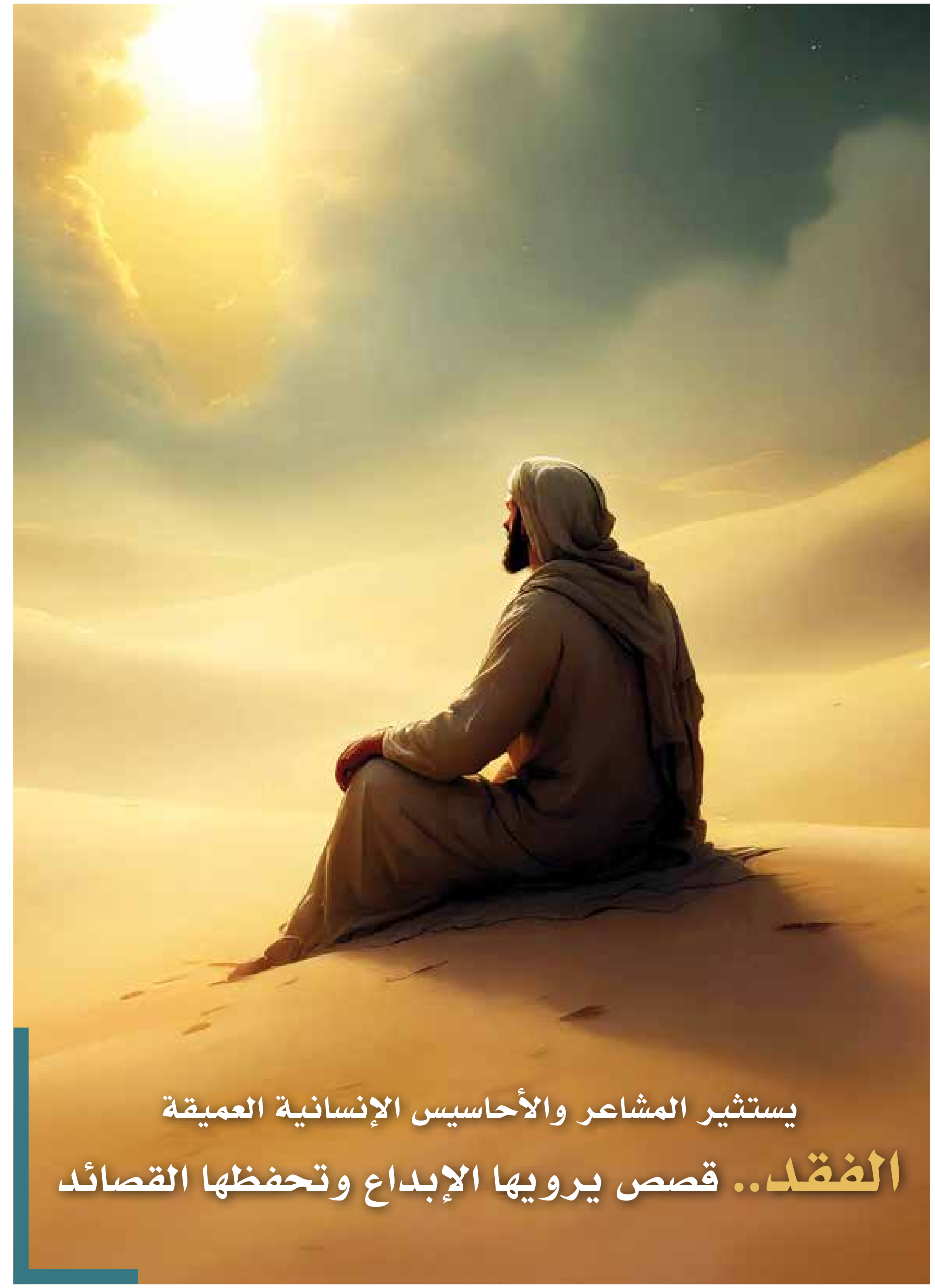
مجلة شهرية تصدر عن دائرة الثقافة بالشارقة
السنة السابعة - العدد (76) - ديسمبر 2025

الرحلة.. بحثٌ في نماذج شعرية خالدة

الصيد.. وسيلةُ الشعر ومتعةُ الانتصار

النّبع.. قصيدة الماء والعطاء





يستثير المشاعر والأحاسيس الإنسانية العميقة

الفقد.. قصص يرويها الإبداع وتحفظها القصائد

يرتبط الأدب في كل أحواله بالأحاسيس الإنسانية وخلجات النفس؛ وتعدّ المشاعر من الدوافع الرئيسة له، إذ لا يمكن إنتاج أدب يخلو من التعبير عن الوجدان والمشاعر الإنسانية بشكل أو بآخر. ومن المتعارف عليه علمياً أن العواطف أو الانفعالات الإنسانية تشملها تصنيفات أربعة، هي: الرضا، والغضب، والحب، والكره.. وتحت كل واحدة منها تندرج عشرات المشاعر والأحاسيس؛ فالسعادة والفرح والحبور والانتشاء والضحك والسرور، كلّها تأتي تحت تصنيف «الرّضا». في حين يأتي البكاء والحزن والألم... إلخ تحت تصنيف «الغضب»، وهكذا.



د. محمود الضبع
مصر

غير أن هناك مشاعر وأحاسيس تنتج عن أكثر من تصنيف، ومنها الفقد، الذي يأتي مزيجاً بين الغضب والكره واللوعة والحنين في آن؛ ولذا يكون تأثيره في الإنسان أكثر قسوة وأشدّ مرارة، ويمثل بالنسبة له الفاجعة التي تجعل الأرض تهتزّ من تحت الأقدام، وتفقد الحياة معناها بالجملة، وإلّا ما كان فقداً بالمعنى المتعارف عليه.

من هنا مثلت حالات الفقد مساحة من الأدب العربي، منذ أقدم نماذجه وحتى لحظتنا الراهنة، بل إن البدايات الأولى التي يؤرّخ الشعر العربي بها تدين إلى الفقد؛ فمن المتعارف عليه في تاريخ الأدب أن بدايات الشعر تعود إلى ما يقارب 250 عاماً قبل الإسلام، مع حالة الفقد التي عايشها المُهَلْهِل بن أبي ربيعة، نتيجة لفقد أخيه وسيّد قومه كليب بن أبي ربيعة، على يد ابن عمه وشقيق زوجته جسّاس بن مرة، فيما يعرف بـ«حرب البَسوس» التي استمرت بعد ذلك أربعين عاماً.

> **مثلت حالاته مساحة من الأدب العربي منذ أقدم نماذجه**

وكانت بداية التعبير عن هذا الفقد مع قصيدة المُهَلْهِل، عندما بلغه خبر مقتل أخيه كليب، فاختلطت عليه مشاعر الفجيعة واليأس والألم وتذكّر أمجاد القبيلة عندما كان أخوه كليب سيّدها وحامي حماها؛ يقول في مطلعها:

كُلَيْبُ لا خَيْرَ في الدُنيا ومَنْ فيها
إن أَنتَ خَلَّيتَها في مَن يُخَلّيها
كُلَيْبُ أَيُّ فَتى عِزٍّ ومَكْرُمَةٍ
تَحْتَ السَّفاسِفِ إذ يَعْلوكَ سافيها
نَعى النُعاةُ كُلَيْباً لي فَقُلتُ لَهُم
مادَتْ بِنا الأَرضُ أَم مادَتْ رَواسيها

ثم تلا ذلك مباشرة، ما عبرت به جليلة بنت مرّة، عن مأساتها النادرة الحدوث، لأن أخاها جساساً هو قاتل زوجها كليب، فهي مفجوعة في فقيدها «الزوج»، ومفجوعة في أخيها «الذي لن تستطيع النظر في عينيه»، وهو ما سجلته في قصيدتها الشهيرة؛ تقول:

يا قَتيلا قَوَّضَ الدَّهْر به
سَقْف بَيْتيَّ جَميعاً مِنْ عَلِ
هَدَمَ البَيْتَ الّذي اسْتَحْدَثْتُهُ
وانْثَنى في هَدْمِ بَيْتي الأوّلِ
ورَماني قَتْلُهُ مِنْ كَثَبٍ
رَمْيَةَ المُصْمَى به المُسْتأصَلِ

يتجلّــى عمق هــذا الفقد فــي توجيه خطابهــا لزوجها المقتول (كليب) الذي تسـبب موته فـي هدم البيتين (بيت الزوجية المستحدث) و(بيت أسرتها لأبيها).

كما يذكر التاريخ بعد ذلك رثائيات الخنساء في تعبيرها عــن فقد أخويها صخر، ومعاوية، التي انتشـر فيها التعبير عن الأنين والأسى وكأنّ الحياة انتهت برحيل أخويها؛ تقول:

بَكَتْ عَيْنــي وعاوَدَها قَذاها
بِعُــوارٍ فَمــا تَقْضــي كَراهــا
على صَخْــرٍ وأيُّ فَتىً كَصَخْرٍ
إذا مــا النّابُ لم تَــرأمْ طَلاها

وهي التي تحاول التصبّر والتأسّـي بمـزج فجيعتها مع فجائــع من حولها، وإن كانت مشـاعرها تنكـر عليها ذلك، تقول:

ولَوْلا كَثْــرَةُ الباكيــنَ حَوْلي
على إخْوانِهِم لَقَتَلْتُ نَفْســي
ومــا يَبْكونَ مِثْــلَ أخي ولَكِنْ
أُعَــزّي النَّفْسَ عَنهُ بِالتَّأَسّــي



حالــة الفقــد عايشــها المهلهل نتيجة لفقد أخيه كليب

أما عنترة بن شـداد، فإنه على الرغم ممّا شاع عنه من فروسـية ودفاع عن حمى قبيلته، ومــن حبّه لعبلة الذي لم يكـن يفارقه ولو في سـاعة الحرب ذاتها، فـإن له جوانب أخـرى يعبّر فيها عن مـرارة الفقد وقوة تأثيـره وإضعافه للروح؛ يقول:

لَحى اللــهُ الفِــراقَ ولا رَعاهُ
فَكَمْ قَدْ شَــكَّ قَلْبــي بالنِّبالِ
أقاتِــلُ كُلَّ جَبّــارٍ عَنيــدٍ
ويَقْتُلُنــي الفِــراقُ بــلا قِتالِ

وهناك علامات دالّة في تاريخ التعبير عن الفقد، شاعت وانتشـرت أكثر من غيرها في الشعرية العربية، ومنها تعبير ابن الرّومــي، عن فجيعة فقد الابن في قصيدته الشـهيرة التي يبدأها بمخاطبة عينيه:

بُكاؤكُما يَشْفي وإنْ كان لا يُجْدي
فجُودا فَقَدْ أوْدى نَظيرُكُما عِنْدي
تَوَخّى حِمامُ الموتِ أوْسَطَ صِبْيَتي
فللهِ كيفَ اخْتار وَاسِـطَةَ العِقْدِ

فهــا هو يــزور ابنه في قبـره، فيكون قريبــاً منه على بعد خطـوات، لكنه على الرغم من هــذا القرب، فإنه بعيد لاستحالة لقائه، وها هي المفارقة المفجعة تتحقق، فضاعت كل الآمال بأن يراه شاباً فتياً ورجلاً قوياً.

وفي رثائية للشـريف الرضي من العصر العباسي، يعبّر عن فقده برشاقة اللفظ والمعنى معاً، مخاطباً فقيده، ومعبّراً عن حاله التي تبغي التستّر لكن الدمع فضّاح:



أَبْكيكِ لَــوْ نَقَعَ الغَليلَ بُكائي
وأقولُ لَوْ ذَهَــبَ المَقالُ بِداءِ
وأعوذُ بِالصَّبْرِ الجَميلِ تَعَزِّياً
لَوْ كانَ بِالصَبرِ الجَميلِ عَزائي

ويرصد البهاء زهير، مــن العصر المملوكي، لوعة الفقد والفراق مسـلّماً بحكمة الدهر وتصاريفه، ومقرّاً بما تقسمه الليالي؛ يقول:

ومــا فارَقْتَنــي طَوْعــاً ولكن
دَهاكَ مِــنَ المَنِيّةِ مــا دَهاكا
لَقَدْ حَكَمَــتْ بِفُرْقَتِنا اللّيالي
ولَمْ يكُ عَنْ رضايَ ولا رِضاكا

أما تجربة الفقد عند أسامة بن منقذ، من العصر الأيوبي، فإنها تفتح الباب أمام تأمّلات فلسـفية، ربما تُسْتدعى على سبيل التأسّي والبحث عن متّكأ للقلب يخفف آلام هذا الفقد؛ يقول:

قُلْ لِلّذي فَقَدَ الأَحِبَّةَ وانْثَنَى
يَسْـقي دِيارَهُمُ دُمُوعاً تَسْجُمُ
ماذا وُقُوفُكَ فِي الدِّيارِ مُسائِلاً
عَنْ أَهْلِها ومَتى يُجِيبُ الأَبْكَمُ
سَلْ عَنْهُمُ صَرْفَ الزَّمانِ فَإِنَّهُ
بِهِمُ مِنَ الــدّارِ الْمُحِيلَةِ أَعْلَمُ

يذكر التاريخ رثائيات الخنساء في فقد أخويها



ويعبّر شـمس الدين الكوفي، من العصر المملوكي، عن فقده للحبيب في قصيدة شـاع غناؤها في العصر الحديث، وتردّد صداها على ألسن الرواة، يقول في مطلعها:

عِنْـدي لأجْـلِ فراقِكُـم آلامُ
فَعـلامَ أُعْــذَلُ فيكـمُ وأُلامُ
مَنْ كانَ مِثْلي لِلْحَبيبِ مُفارِقاً
لا تَعْذِلـوهُ فَالـكَلامُ كِلامُ

قيس بن ذريـح يعبر عن فقده زوجته لبنى بنت الحباب

وهكذا فإن المتتبّع لمسيرة الشعر العربي، سيجد الكثير مـن النماذج التي تعبّر عن حـالات الفقد؛ وتتنوع بين فقد الأب أو الأم أو الأخ أو الأخـت، أو الزوجـة أو الحبيبـة أو الابـن أو الابنة، إلى جانب بعض النماذج التي اسـتطاعت التعبيـر عن فقد الزعماء أو القـادة الذين كانت لهم محبة في القلوب.

ويعد موضوع رثاء الزوجـة والتعبير عن فجيعة فقدها، وما يترتب عليه من آثار تمتدّ لتصوّرها حال الأبناء والأطفال الصغار، من أكثر الموضوعات انتشـاراً في الشعر العربي، منـذ العصر الأموي، مروراً بالعباسـي والأندلسـي، وحتى العصر الحديث.

فهـذا قيس بن ذريـح، في العصـر الأمـوي يعبّر عن فقـده زوجته لبنى بنت الحباب، وبخاصـة مع قصة حبهما المأسـاوية، التي بدأت بالزواج، وشـاءت الأقدار أن يجبره أهلهـا على طلاقها لعدم إنجابها، ثـم موتها بعد حين، كما تذكر بعض المصادر، وهو ما عبّر عنه قيس، مصوراً نفسـه طفلاً يتيماً؛ يقول:

إلى اللهِ أشْكو فَقْدَ لُبْنى كَما شَكا
إلَى اللهِ فَقْـدَ الوالِدَيْنِ يَتيمُ
يَتيمٌ جَفاهُ الأَقْرَبُونَ فَجِسْمُهُ
نَحيلٌ وعَهْـدُ الوالِدَيْنِ قَديمُ

ويأتي الشـاعر الأموي جرير، ليصـوّر تجربته مع فقد الزوجة، ووقوفه على قبرها، ومحاولته كتم عبراته ودموعه خجـلاً من تقاليد المجتمع آنذاك، غير أنه لم يسـتطع رغم كل قيـود المجتمع، أن يمتنع عن تصويـر أبعاد الفقد التي يعانيها، ولوعة الفراق التي تركتها الزوجة في قلبها بموتها، وحالة أطفاله الصغار من بعد رحيل أمهم؛ يقول:

لَوْلا الحَياءُ لَعادَني اسْـتِعبارُ
ولَزُرْتُ قَبْرَكِ والحَبيبُ يُزارُ
ولَقَدْ نَظَـرْتُ وما تَمَتُّعُ نَظْرَةٍ
في اللَّحْدِ حَيْثُ تَمَكَّنَ المِحْفارُ
فَجَزاكِ رَبُّكِ في عَشيرِكِ نَظْرَةً
وسَقى صَداكِ مُجَلْجِلٌ مِدْرارُ

ويعبّر ابن الزيّـات (محمد بن عبد الملك)، وكان وزيراً للمعتصـم والواثق، في عصر الدولة العباسـية، عن تجربة فقد الزوجة متّكئاً على المجاز بحجج منطقية؛ يقول:

يَقولُ لـي الخِلّانُ لَوْ زُرْتَ قَبْرَها
فَقُلْتُ وهَلْ غَيْـرَ الفُؤادِ لَها قَبرُ
عَلى حينِ لَمْ أَحدُثْ فأَجهَلَ فَقدَها
وَلَم أَبلُغِ السِّـنَّ الَّتي مَعَها الصَّبْرُ

وقد احتلّ هـذا الموضوع «فقد الزوجة» مسـاحة من الشـعر الحديث؛ فهذا هو البـارودي يبدأ قصيدته المطوّلة



بمخاطبة الموت الذي يجعل له يداً تشـعل النار في القلب، وتضعف النفس والروح، وتحطم البنيان وتسـيل الدمع على الخدود؛ يقول:

أيــدَ المَنون قَدَحْــتِ أيَّ زِنادِ
وأطَرْتِ أيَّــةَ شُـعْلَةٍ بفؤادي
أَوْهَنْتِ عَزْمي وهو حَمْلَةُ فَيْلَقٍ
وحَطَمْتِ عودي وهو رُمْحُ طِرادِ

ويعبــر محمــد مهــدي الجواهــري، عن فقــده زوجته بحجاجية منطقية موجعة تسـتنكر على الإنسان أن يتجلد أو يقوى على البقاء حياً بعد رحيل من يحب؛ يقول:

في ذِمَّــةِ اللهِ ما ألْقَــى وما أجِدُ
أهــذِهِ صَخْــرةٌ أمْ هَــذِه كَبِــدُ

البدايات الأولــى التي يؤرّخ لها الشعر تدين إلى الفقد

قدْ يَقتُلُ الحُزْنُ مَنْ أحْبابهُ بَعُدوا
عَنْهُ فَكَيْفَ بِمَــنْ أحبابُهُ فُقِدوا

ويقول:

خَلَعْتُ ثَوْبَ اصْطِبارٍ كانَ يَسْتُرُني
وبانَ كِــذْبُ ادِّعائي أنَّنــي جَلِدُ
بكَيْتُ حتَّى بَكا من لَيْسَ يَعْرِفُني
ونُحْتُ حتَّــى حَكاني طائرٌ غَرِدُ

وقريب من مسلك الجواهري، ما يسلكه عبد الرزاق عبد الواحد، في تعبيره عن فقد الأحباب الذين كانت بهم الدار عامرةً آنسـةً، فغدت بعد فقدهم موحشـةً بائسـةً، وصارت الدنيا كلها ضيّقةً مظلمةً؛ يقول:

كَيفَ السَّبِيلُ وقَدْ شَطَّتْ بِنا الدَّارُ
أمْ كَيفَ أصْبرُ والأحْبابُ قَدْ سارُوا
ومَنْزِلُ الأُنس أضْحى بَعْدَ ساكِنه
مُستَوْحِشاً حِينَ غابَتْ عَنهُ أقْمَارُ



ما كانَ أحْسَــنَنا والــدَّارُ تَجْمَعُنا
والعَيْشُ مُتَّصِــلٌ والوَصْلُ مِدْرارُ

إن النماذج المندرجة في إطار التعبير عن لوعة الفقد لا تنتهــي في الشــعر العربي قديمــه وحديثه، لأن كوارث الحياة لا تنتهي، وحوادث الأيام لا تتوقف، وهو ما يستثير المشاعر الإنســانية للشعراء، فتنفجر المأســاة التعبير عن هذا الفقــد، وإن كان ذلك جميعه يظــل مرهوناً بمقاييس يمكن اســتنتاجها من تاريخ الشــعرية في التعبير عن هذه الفجائع، ومنها:

وجود علاقة عاطفية تربط بين الفقيد والشــاعر، سواء كانــت ناتجة عن صلــة رحم، أم حب، أم صداقــة، وأحياناً للتعبيــر عــن رمز من رمــوز الأمّة، مثل الملــوك والزعماء والرؤساء الذين أحبّتهم شعوبهم.

وجــود فجيعة في الموت ذاتــه، ترتبط بحادث، أو وفاة في ســنّ مبكرة، وبخاصة مع فقد الأبناء، الذي يعدّ أكثرها لوعة، وأعمقها شــعرية، وهو ما يتكشف عبر مراجعة نماذج الشعر العربي، بدءاً بابن الرومي، ومروراً بالشعر المعاصر.

تحقــق الإمكان الشــعري ذاته، فالذيــن عبّروا عن فقد أحبّتهم، كانوا شــعراء في الأســاس، وحتى جليلة بنت مرّة، والخنســاء، لا نعدم وجود أشعار لهما قبل أشعار الفقد تلك، وإن كان الفقــد هــو الذي فجّر شــعريتهما أحياناً، أو جعل نصوصهما يشيع ذكرها في أحايين أخرى.

وأخيراً، فإن التعبير عــن الفقد أدبياً لن ينتهي بوصفه موضوعاً، بل ستتّســع مســاحته الأدبية والشعرية مع فنون العرض المعاصرة، ومع استمرار كوارث فقد الأحبة والأهل والأوطان التي تتزايد في العالم الآن، ومع تعدد وســائط التعبير وســهولة انتشــارها بفعــل التكنولوجيــا وإمكانات الإعــلام المعاصر، التي ســمحت بتركيب مقاطع شــعرية وموســيقية مع مشــاهد مصورة (متحركة أو ثابتة) للتعبير عن هذا الفقد.

